هيدغر ومنزل الوجود

بقلم محيي الدين اسماعيل

« ما اللغة سوى منزل للوجود ... » . هكذا كان يقول مارتن هيدغر . ويعقب ولتر كوفمان على قولة هيدغر هذه ، بأن اللغة بالنسبة لهيدغر نفسه لم تكن سوى المنزل الذي يتخفى وراءه .

لقد استخدم هيدغر كثيرا من المصطلحات ، ولكنها على حد قول احد ناقديه — لم تكن سوى سلسلة من الابراج القوطية العاتية المفزعة . وقد استخدمها ، لا لشيء الا ليردنا على اعقابنا ، بعيدا عن المنزل الذي يقبع فيه .

ان هيدغر من اولئك المفكرين العظام الذين اقاموا صروحا فكرية متكاملة ، بيد ان الصرح الذي اقامه هذا المفكر الكبير، صرح شامخ ولكنه يفتقر الى شيء من الملاحة والجمال ... انه صرح ينتصب من خلال مناظر قاتمة كئيبة ، تذكرنا بمناظر الغابة السوداء التي اوى اليها هذا المفكر ليقيم اعمدة صرحه واقواسه هناك .

صورة رهيبة من الفكر !

والعمل الاساسي لهيدغر هو كتاب « الوجود والزمان — النصف الاول » ، وقد صدر على شكل مقالات ثم جمع في كتاب عام ١٩٢٧ ، وعلى صفحته الاولى اهداء لهوسرل .

ولقد حاول هيدغر في كتابه هذا ان يخرج هوسرل وفلسفته « الظواهرية » اذ ركز جميع قواه الفكرية على وصف الوجود وفهمه . وليس ثمة شك ان وصف الوجود او الوصف الوجودي ، كما قدمه هيدغر يجعل من فكره ركنا من الاركان الاساسية للفلسفة الوجودية المعاصرة . فقد كرر هيدغر ، في بعض مواضع من كتابه هذا الموقف الذي اتخذه الوجوديون ، فيما بعد ، من الانسان والعالم ... الانسان كائن قذف به في هذا الوجود .

حقا ، كان القدامى من الفلاسفة الاسكولائيين « المدرسيين » يقولون بان الانسان قد قذف به الى هذا العالم ، بيد انهم يؤكدون لنا دوما بان القوة التي قذفت بالانسان لم تفارقه قط ، هذا فضلا عن انهم يؤكدون لنا ايضا بان الانسان قد قذف به الى العالم ... لا الى الوجود ! اما الوجوديون المعاصرون فيصرون على ان الانسان يعيش في عزلة رهيبة عن تلك القوة التي دفعت به الى الوجود .

بيد ان هيدغر قد فهم الوجود على انه الجدران الصفيقة الشامخة التي ينطوي وراءها الانسان في عزلته الموحشة القاتمة . ولقد استخدم ، من اجل التعبير عن ذلك ، الفاظا شاعت في الآونة الاخيرة فاصبحت جزءا من الفكر المعاصر وتعبيره عن نفسه ، من امثال « الوعي » و « الهم » و « الكدر » و « الغم » . وقد اكب عليها الوجوديون واستخدموها على اوسع نطاق ممكن ، اذ رأوا فيها الالفاظ المعبرة عن موقفهم ازاء الانسان والعالم . هذا بالرغم من ان هيدغر قد اعلن ، بعد الحرب العالمية الثانية ان لا صلة بينه وبين هذه الفلسفة — او الفلسفات — الوجودية المعاصرة ، واكد ان كل « همه » و « كدره » و « غمه » ناشيء من « قلقه » على قدرته على تحقيق اطلالة شاملة من « شباك الوجود » على « الوجود » .

وفي عام ١٩٢٩ ، اصدر هيدغر كتابه عن « كانط ومشكلة الميتافيزيقا » ، ثم اردفه بمحاضرته الشهيرة « ما هي الميتافيزيقا ؟ » ، والتي ادخل عليها تعديلات واضافات اساسية عام ١٩٤٣ ، وقدم لها فيما بعد ، في عام ١٩٤٩ ، بمقدمة توضيحية تفسيرية . وقد اصبحت هذه المقدمة مرجعا معتمدا في تفهم النهج الفلسفي الذي اخذ به هيدغر .

ولا بد من الاشارة ايضا الى اعلانه الشهير الذي اذاعه بعد ان قبل كرسي الاستاذية في فرايبورغ ، عقب تسلم ادولف هتلر زمام السلطة في المانيا عام ١٩٣٣ . ولقد تضمن اعلانه هذا ان الفكر الجرماني قد غدا على ابواب فجر جديد ، اذ نسخ عصر الحرية الاكاديمية الذي ساد عهودا طويلة . واعلن ان لا صلة له اطلاقا بهرسرل ذلك اليهودي الذي طعن الفكر الجرماني الاصيل باسم مقاومة السلطة الطاغية .

وقد قيل الكثير عن اعلان هيدغر هذا ، وقيل الكثير ايضا عن قبوله لمنصب الاستاذية في جامعة فرايبورغ على هذا النحو الذي اثار اشفاق الكثيرين من المفكرين في العالم ، لا سيما بعد ان اعلن النازي بان هذا الاعلان قد جاء بعد لقاء صوفي تم بين المفكر الكبير وزعيم النازي ، وراى هيدغر في تلك الليلة الاضواء التي تنبعث من عيني « الفوهرر » تبشر بمولد الفجر الجرماني الجديد ... لقد قيل الكثير عن ذلك ، بيد ان هيدغر قد رفض حتى ان يفسر موقفه هذا .

على ان العمل الاساسي الذي قدمه هيدغر للعالم هو كتاب « الوجود والزمان — النصف الاول » ، وهو

الكتاب الذي يتضمن القضية الاساسية في فكر هيدغر ، تلك هي قضية مواجهة « الموت » بـ « قرار » و « قرار نهائي » . والقرار في الصيغة التي يعنيها هيدغر هي المحور الاساسي الذي يدور حوله «الوجود» و «الزمان».

القضية هي قضية مواجهة جوهر الوجود ... تلك هي قضية الانسان ... تلك هي روح الانسان .

ويرى هيدغر ان مواجهة جوهر الوجود قد استطاع ان يعبر عنها هلدرلن في اشعاره باعتبارها قرارا من قرارات الروح الانساني . وقد اكد ذلك في مقالاته الشهيرة التي كتبها عن هذا الشاعر ، والتي اخرجها عام ١٩٤٣ في كتيب عن الشاعر وعن قضية الشعر .

وفي عام ١٩٤٧ نشر كتابه الموجز عن « الانسانية »، وهو الكتاب الذي هاجم فيه سارتر والوجودية التي يدعو اليها . وفي عام ١٩٥٠ نشر رده على نتشه وعلى قولته الشهيرة « ان الله قد مات » .

وفي هذه الفترة ، يبدو ان هيدغر قد تابع كشوفاته الوصفية للوجود ، وتوقف عن تحليل الوجود والزمان .

وفي عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ نشر اربعة كتيبات تتضمن بعض محاضراته ومقالاته . وفي عام ١٩٥٣ بالذات اعيد الحديث عن قضية التهمة التي وجهت اليه بالتواطؤ مع النازي . ومما اكد هذه التهمة لدى بعض من اثارها في الصحف والمجلات ان هيدغر قد اورد في ذلك العام (١٩٥٣) بعض العبارات في كتاباته ، تضمنت اجلالا للحزب النازي الذي كان يشير اليه باسم « الحركة » في معظم الاحيان .

وكان الحزب النازي قد عقد مؤتمره الشهير في نورمبرغ عام ١٩٣٥ تحت شعار « انتصار الارادة » . وكان المؤتمر تمجيدا لتعاليم نتشه . ولكن يبدو ان ذلك المؤتمر لم يثر حماس هيدغر انذاك . بل على العكس من ذلك رأى ان اوروبا يطبق عليها فكا كماشتين رهيبتين هما روسيا والولايات المتحدة اللتان تمثلان حقيقة واحدة . واعلن انه ليست هناك من قوة قادرة على ان تقف في وجه هاتين القوتين المروعتين حتى في المانيا ذاتها . واشار الى ان الحقيقة المفزعة هي ان هذه التكنولوجيا قد انطلقت من دون قيد . وقد طرحت امام المانيا قضية كبرى، من وجهة نظر ميتافيزيقية ، هي الى اي حد سيكون بوسع المانيا ان تواجه الوجود ، وان تصدق على قرارها وقرارها النهائي .

لقد اعلن هيدغر موقفه هذا من وراء اسوار عزلته في الغابة السوداء ، يحاول ان يستكشف الوجود وان يحلل ما استكشفه بصدق افقده فرصة «نورمبرغ» والزمه بموقف شائك في عالم الوجود والزمان .

بحث هيدغر معضلات الوجود والزمان ، واكد لنا في رسالته عن « الانسانية » ان الفكر البشري لم يحقق، حديثا ، اي تقدم في كشف اية حقيقة في هذا الميدان . ولكن هل استطاع هيدغر ان يقدم للعالم كشفا جديدا في هذا المجال ؟

بلى ! وليس خطأ هيدغر ان عجز المفكرون المعاصرون عن كشف حقيقة جديدة من حقائق الوجود والزمان ... اما هو فقد حقق اكثر من كشف .

ان فكر هيدغر يتجه صوب طرح الاسئلة وانتظار الاجوبة عنها ، ذلك لان الانتظار هو مواجهة الروح ، وان العجز عن انتظار الجواب يعتبر خطيئة مميتة في حق الروح . لذا فان معظم اثار هيدغر سؤال وانتظار للجواب .

ففي مقدمته عن الميتافيزيقا يطرح هيدغر في الفصول الاربعة الاولى هذا السؤال : « لماذا يوجد هناك وجود ، اي وجود ، وليس هناك من عدم ؟ » . انه سؤال فيه صدق الطفولة وصراحتها وصدقها . وفيه عجز الاخرين عن الجواب عنه ... لا ! ... ان هيدغر يرفض رفضا نابعا من قرار نهائي بان ليس هناك من عجز ... هناك انتظار للجواب !

على انه ليس بوسع اي عصر من العصور ان يجيب عن هذا السؤال ، الا بالانتظار . وكل ما طرحت من اجوبة عن ذلك ان هي الا محاولات لايقاظ الوعي الحضاري ايقاظا كاملا . فالوجود ظلمة منيرة ، ينبعث منها الدخان ، كما ينبعث النور . وليست رؤيا الانسان كاملة ولا في اي ظرف من الظروف .

لقد قال نتشه على لسان زرادشت « ان اعماق الوجود لا تتحدث الى الانسان ابدا الا كانسان ! » .

هذا الموقف « الوجودي الانساني » يلائم هيدغر اذ هو يعبر عن « هموم » الانسان و « احزانه » و «كدره » امام الوجود وامام المطلق ، كما يؤكد مستوى الانسان من الوجود ... انه بالرغم من الحلم الجميل ببلوغ هدف « التفوق الاعلى » الا انه سيظل ابدا هو الانسان .. لن يتخذ الا موقف الانسان ، ولن يستخدم سوى لغة الانسان ، ولن يفهم لغة غير لغة الانسان ... انه موقف الهم والكدر والضيق .

بيد ان هيدغر بالرغم من اقراره بمثل هذا الموقف يمضي بعد ذلك حتى يشارف تخوم التطلع اللاهوتي. ذلك لان المنطق بجميع ابعاده يقصر عن فهم بعد واحد من ابعاد الوجود .

راقب المنطق وهو يتحدث عن العدم او عن اللاشيء ... انه يضطر الى احالة العدم او اللاشيء الى وجود او بعض الشيء لكي يستطيع ان يتحدث ... المنطق يناقض نفسه بنفسه .

ولعل العجز هنا هو عجز اللغة لا عجز اداة المنطق ذاتها ... لعل اللغة هي السور الذي يحجز الوجود عن الانسان ... ويحجز الانسان عن الانسان !

الوجود ... (و) ... نسيان الوجود !

ان اللغة احيانا تعجز عجزا مطلقا عن التمييز بين الوجود وبين نسيان الوجود . ان اللغة بحاجة الى مصطلح

يمزج بين « السلبي » و « الايجابي » لكـــي يدرك اغوار نسيان الوجود . فنسيان الوجود هو خليط سحري بين السلب والايجاب ... انه وجود كما هو انسحاب مـن الوجود .

انه فراغ كما هو امتلاء !

لقد حاول كافكا في « القلعة » و « المحاكمة » ان يعبر عن الفراغ والامتلاء في آن واحد ، وقد نجح الى حد ما في تصوير بطله « ك » مليئا بالوجود وفارغا من الوجود او ناسيا له . لقد كانت لحظاته الاخيرة في « المحاكمة » وهو مشدود ورازح تحت قبضة غير انسانية مرعبة في ليل الوجود المدلهم ، اعظم تعبير ممكن عن الوجود والامتلاء ... كانت لحظة فيها شيء من الكشف عن اعماق الوجود الذي كان يتحدث اليه بصوت انساني عميق .

كذلك فان هيدغر يرى في « الوجود » مـــا يراه اخرون في « المطلق » وما يراه الصوفية في « اللـــه ـ المحبة » . من الممكن ان يمتلىء به الانسان ، ومن الممكن ان ينضب منه معينه .

ولقد حاول هيدغر ان يحدد مصطلحاته تحـديدا جديدا ، فبدأ يكتب وكأن لم يكن هناك افلاطون ولا كانط ولا هيغل ولا نتشه ... بدأ يكتب من جديد .

وتلك هي ميزة هيدغر ... اعطاء المصطلح الواحد اكثر من مدلول POLYSEMY ورفض ان يكون للمصطلح الواحد مدلول واحد HOMONEMY

ولقد عاب هيدغر على اللغة عجزها احيانا عن اعطاء مدلولات متعددة في اللفظ الواحد ، واعتبر ذلك عجـزا عن الامتلاء الواضح . ولعل العجز هنا يكمن في اللغـات التي عالجها هيدغر ... ثم لعلنا نستطيع القول ان هيدغر لو عالج اصول الاشتقاق في اللغة العربية لتردد قليلا في اطلاق احكامه على اللغة من حيث عجزهـا عـــن الوضوح وعجزها عن الامتلاء في آن واحد .

خذ مثلا الفعل « مد » . ان هذا الجذر يمتد الى اطراف ليعبر عن مدلولات عديدة . تصدر عنه « المـدة » اي الزمان ، ويصدر عنه « الامتداد » اي المكان .

انه جذر ينطوي فيه الوجود والزمان، على نحو قريب جدا من نهج هيدغر في التعبير عن تساؤلاته . وتلـك معجزة من معجزات اللغة العربيـة وعبقريتها . اما في اللغات الاخرى فان الاشتقاق اشتقاق ضمني ـ كما يدعوه الفيلولوجيون ـ ، اي تحول الكلمات من مستـوى الى مستوى مغاير تماما ، واذا تضمنت اللفظة الواحدة اكثر من مدلول فقد فقدت صفة الوضوح التي يشترطها هيدغر .

تلك ملاحظة عاجلة عن اللغة ومنزل الوجود عنـد هيدغر مفكر التساؤل والانتظار .

القاهرة — **محيي الدين اسماعيل**

صدر حديثا عن دار الاداب :

المعقول واللامعقول في الأدب الحديث

تأليف كـولن ولسون

ترجمة انيس زكي حسن

دراسات هامة رائعة عن تيارات الفكر الحديث في الادب والفن ، بقلم كاتب مـــن اشهر كتاب العصـر

الثمن ٤٥٠ ق. ل